

أقطاب الرواية المصرية

أبو عبد الله القضاعى

فقيه ومؤرخ وسياسى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

عنيت منذ أعوام بدراسة طائفة من أقطاب الرواية التاريخية عن مصر الإسلامية ودرس آثارهم ، ما دُرِ منها وما تبقّى ؛ وكتبت بالفعل عدة فصول عن ابن عبد الحكم والكندى وابن زولاق استعصيت فيها حياتهم وآثارهم ؛ ثم تناولت بعد ذلك عدة أخرى من مؤرخى مصر الإسلامية في عصور متأخرة ، مثل التويرى والمقرئى وابن تفرى بردى والسخاوى وابن لياس ؛ وقصدى بذلك أن أترجم لمؤرخى مصر الإسلامية كلما سنحت الفرص ، وأن أستوعب مصادر التاريخ المصرى

والآن نستأنف هذا الدرس ، ونخصص هذا الفصل لأستاذ من أساندة الرواية المصرية ، هو أبو عبد الله القضاعى ، وهو مؤرخ وفتية وسياسى ممّا ، عاش في فترة من أدق الفترات التي جازتها مصر الإسلامية ، وشهد الدولة الفاطمية في ذروة القوة والمظنة ، ثم شهدتها تنحدر سراعاً إلى دور من الانحلال والتفكك يكاد يؤذن بذهابها ، وشهد محنة من أشنع المحن التي طالتها مصر الإسلامية ، وانتدب أيام المحنة ليكون سفيراً لأُمته في طلب المون والفوت ؛ وكتب عن مصر الإسلامية وعن حوادث عصره آثاراً هامة ، لم تصل للأسف كلها إلينا ، ولكن ما انتقى إلينا منها عن يد المؤرخين المتأخرين يدل على أهميتها وقيمتها وهو القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى الشافى المصرى ؛ ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجرى ، في عصر الحاكم بأمر الله ، ودرس الحديث ، والفقه على مذهب الشافى وبرع فيه ، وبرز في التاريخ والأدب ؛ وبدأ حياته العامة بتولى القضاء ، ولبت إليه حيناً بالنباية كلها خلا منصب قاضى القضاة بالوفاة أو الغزل ، ثم تولى التوقيع (أو العلامة) لأبى القاسم

٥٠٢٤

الجرجرائى المعروف بالأقطع^(١) وزير الخليفة الظاهر لاعزاز الله ابن الحاكم بأمر الله ، ثم وزير ولده المستنصر بالله من بعده . ولما توفى الوزير أبو القاسم (سنة ٤٣٦ هـ) تقلب القضاعى في عدة وظائف ومهام رسمية ؛ وكان المستنصر بالله يقربه ويثق بمحنته وحسن تصرفه للأمور ؛ وبحول القضاعى ودرس في بغداد ومكة والشام ؛ ووقف على أحوال الدول الإسلامية يومئذ ، وبحرى السياسة في القصور المختلفة ، وتبوأ في البلاط المصرى ذروة الثقة والنفوذ . ثم جاء ظرف عهد فيه إلى القضاعى مهمة سياسية دقيقة . ذلك أن الأزمات والفتن الداخلية التي تواتت على مصر في عهد المستنصر بالله لبثت تتفاقم حتى انتهت بوقوع الغلاء والقحط ؛ ثم كانت الطامة الكبرى بوقوع الوباء في سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٣ م) ؛ وعانت مصر يومئذ آلاماً ومحنًا مروعة . وتعرف هذه الشكبة في تاريخ مصر الإسلامية « بالشدة العظمى » . وقد بدأت كالعادة بالغلاء وندرة الأقوات ، وكان بين مصر والدولة البيزنطية يومئذ علائق حسنة ، فأرسل المستنصر بالله في سنة ٤٤٦ هـ إلى امبراطور قسطنطينية ، وهو يومئذ قسطنطين السابع ، أن يعده بالغلال والمؤن ؛ وكانت الدولة البيزنطية تواجه يومئذ خطر السلاجقة الذين أشرفوا على حدودها الشرقية وعاثوا في آسيا الصغرى ؛ وكانت ترى أن تقوى صداقتها وتحالفها مع مصر التي كانت تحشى غزواتها من الجنوب ومن البحر ؛ فاستجاب قسطنطين لدعوة المستنصر ، وتم الاتفاق على أن ترسل المؤن من قسطنطينية إلى مصر ، وأعدت بالفعل لتلك الغاية مقادير وافرة من الغلال تقدرها الرواية الإسلامية بأربعمائة ألف أردب^(٢) ولكن قسطنطين السابع توفى قبل تنفيذ الاتفاق ، وخلفته على عرش قسطنطينية الامبراطورة تيودورا ، واشترطت لإرسال المؤن إلى مصر شروطاً أباحها المستنصر ، ومنها أن يعدها بالجند لمحاربة السلاجقة ؛ فانقطعت المفاوضات بين الفريقين ، وسير المستنصر جيوشه إلى الحدود الشمالية ، ونشبت بين الفريقين معارك انتصر فيها المصريون بادية ذى بدء . ولكن الأسطول البيزنطى غزا مياه الشام ، وهزم المصريين في عدة مواقع ؛ فكف

(١) سمي كذلك لأنه كان أقطع البدين ، قطعا بأمر الحاكم بأمر الله

سنة ٤٠٤ هـ

(٢) خطط المقرئى . بولاق . ج ١ ص ٣٣٥

المتنصر عن متابعة الحرب، وعاد إلى المهادة والمفاوضة، وأرسل إلى بلاط قسطنطينية سفيراً مختاراً يسمى إلى عقد الصلح وتنظيم الملائق بين الفريقين

وكان ذلك السفير المصري إلى بلاط القياصرة، هو أبو عبد الله القضاى الذى يحبوه المتنصرون بشفقة وتقديره. فقصده القضاى إلى بزنطية عن طريق الشام؛ وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه السفارة الشهيرة في سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ويقع هذا التاريخ في عصر الامبراطورة تيودورا التى جلست على العرش سنة ١٠٥٤ م وتوفيت في أغسطس سنة ١٠٥٧ م؛ وعلى هذا فقد كانت سفارة المتنصر إلى الامبراطورة تيودورا. وهذا ما يذكره ابن ميسر مؤرخ مصر بوضوح في حوادث سنة ٤٤٧ هـ إذ يقول: « وفيها سير المتنصر، فقبض على جميع ما في كنيسة القمامة ^(١)؛ وسبب ذلك أن أبا عبد الله القضاى كان قد توجه من مصر برسالة إلى القسطنطينية، فقدم إليها رسول طفرليك يلتمس من ملكتها أن يصلى رسوله في جامع قسطنطينية، فأذنت له في ذلك؛ فدخل وصلى بجامعها، وخطب للخليفة القائم؛ فبعث القضاى بذلك إلى المتنصر فأخذ ما كان بقمية؛ وكان هذا من الأسباب الموجبة للفساد بين المصريين والروم ^(٢) يد أن هنالك من جهة أخرى ما يدل على أن الجالس على عرش قسطنطينية وقت مقدم القضاى إليها لم يكن الامبراطورة تيودورا، وأن الذى استقبل السفير المصرى هو خلف تيودورا الامبراطور ميخائيل السادس (ستراتيو تيكوس) الذى تولى عرش قسطنطينية في أغسطس سنة ١٠٥٧ م؛ فقد نقل القرزى في كتابه « الملقى » في ترجمة القضاى ما يأتى: « وقال أبو بكر محمد بن سامع الصنوبرى، سمعت القاضى أبا عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاى يقول: لما دخلت على ملك الروم اليون، رسولاً من قبل المتنصر بالله، وأحضرت المائدة، فلما رفعت جمعت ألنقط الفتات؛ فأمر الفراش أن يحضر أخرى، ففعل؛ فقال لى الملك أصبت منه وإنك لم تشبع؛ فقلت

(١) هي كنيسة بيت المقدس التي تعرف عند النصارى « بالدير المقدس » أو قبر المسيح

(٢) ابن ميسر في « أخبار مصر » في حوادث سنة ٤٤٧ هـ — وخطط القرزى ج ١ ص ٣٣٥

أنا والله مستكف؛ فقال لى لم أكلت الفتات؛ فقلت: بلننى مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من التقط ماسقط من المائدة برىء من الحق والفقر؛ فأمر الخازن في الحال بإحضار ألف دينار وإعطائها؛ فقلت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستغنيت وبريت من الحق ^(١)؛ وذكر القرزى في الخطط أيضاً ما يؤيد هذه الرواية ^(٢). على أننا نستطيع أن نوفق بين الروایتين فنفترض أن القضاى وصل إلى قسطنطينية في أواخر عهد الامبراطورة تيودورا؛ واستمر في أداء مهمته بعد وفاتها لدى الامبراطور ميخائيل السادس؛ ومكث حيناً بقسطنطينية؛ ومما يؤيد طول مكث القضاى بماصمة القياصرة أنه عني هنالك بالدرس وجمع المواد التاريخية عن المدينة وخططها ^(٣). أما مهمة السفير المصرى لدى البلاط البيزنطى فلم تحدها الرواية الإسلامية تحديداً واضحاً، ولكننا نستنتج مما قدمنا من الظروف والحوادث أنها كانت تقوم على السعى في إقناع البلاط البيزنطى بالتحالف مع مصر ضد السلاجقة، وإعانة مصر بالأقوات والمؤن، تنفيذاً للعهود التى قطعها قسطنطين السابع للممتنصر وتوفى قبل الوفاء بها

ولكن القضاى أخفق في مهمته. ذلك أن السياسة البيزنطية آزت جانب السلاجقة، لأنهم كانوا يومئذ أشد خطراً على الدولة الشرقية من مصر، وآثر القيصر أن يتعاقد مع رسول طفرليك؛ وبعث القضاى بذلك إلى المتنصر، فرد المتنصر بالقبض على أخبار قمامة ومصادرة نفائسها، واضطربت الملائق بين مصر وبيزنطية كره أخرى؛ وعاد القضاى إلى مصر على أثر هذا الفشل، ونستطيع أن نضع تاريخ عودته في سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أعني بعد أن أنفق أكثر من عامين في رحلته. ثم توفى القضاى بعد ذلك ببضعة أعوام، في ١٦ ذى القعدة سنة ٤٥٤

— ٢ —

كتب القضاى عدة مصنفات في الفقه والتاريخ منها كتاب

(١) نقل ترجمة القضاى هذه من القطعة المحفوظة بمكتبة ليدن من كتاب « الملقى » المنشور كينج في مقعته للجزء الذى نشره من كتاب « تسمية أمراء مصر » للسكندى (ص ٢٢ و ٢٣)

(٢) راجع الخطط ج ١ ص ٣٣٥

(٣) راجع طبقات الشافعية للسبك في ترجمة القضاى — ج ٢ ص ٦٣

وآثارها وتاريخها منذ الفتح الاسلامى باقضة ، وأضاف اليه ما انتهت اليه أحوال القاهرة العزبة حتى منتصف القرن الخامس والظاهر أيضاً أن كتاب « المختار » إنما هو النعوت « بتاريخ القضاى » لأن ما نقل الينامته من الشذور يمتاز باقضة واضحة ، ولا وجود له فى الوجز المسمى « عيون المعارف »

وقد كان القضاى ، كما يبدو من آثاره ، مؤرخاً دقيقاً ثقة ، يزن روايته ويعحصها ، وكانت روايته عن مصر الاسلامية ، ولا سيما عن حوادث عصره ، مستقى خصباً لكثير من المؤرخين المتأخرين ؛ وما زالت هذه الرواية دائمة تتخذ مكانها بين مصادر التاريخ المصرى حتى أواخر القرن التاسع حيث نرى السيوطى ينقل فى حوادث فتح مصر عن كتاب « الخطط » للقضاى مكتوباً بخطه^(١) ، وفى ذلك ما يؤيد أيضاً أن الكتاب النعوت « بتاريخ القضاى » إنما هو كتاب المختار فى الخطط والآثار ؛ ومن بواعث الأسف أن يحتجب عنا هذا الأثر الهام بين مصادر التاريخ المصرى ، ولا سيما بين مصادر العصر الفاطمى الأول ، الذى احتجبت عنا معظم الآثار الخاصة به ، والتى غدت كالحلقة المفقودة فى مصادر تاريخ مصر الاسلامية^(٢)

(النقل ممنوع) محمد عبد الله غنانه

(١) حسن المحاضرة - ج ١ ص ٧٠

(٢) راجع فى ترجمة القضاى : ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٥ - السبك (طبقات الشافعية) ج ٣ ص ٦٣ - والمقرئى فى اللقى (مقدمة كتاب الولاية طبعة كينج ص ٢٢ و ٢٣) وفى الخطط ج ١ ص ٥٠ و ٣٠٠ - والسيوطى فى حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨ - وأخبار مصر لابن ميسر فى حوادث سنئ ٤٤٧ و ٤٥٤

ظهر حديثاً :

فى أصول الأدب

صفحات من الأدب الحى والآراء الجديدة

بقلم

أحمد حسن الزيات

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن جميع المكاتب

وثمنه ١٢ قرشاً عند أجرة البريد

« الشهاب » وكتاب « مناقب الامام الشافعى وأخباره » وكتاب « الانبياء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء » وكتاب « المختار فى ذكر الخطط والآثار » وكتاب « عيون المعارف » ، وقد دثر معظم هذه الآثار ، ولم يصلنا منها سوى كتاب « الشهاب » و « مسند الشهاب » أو (مسند الصحاب) وهما فى الحديث ، وكلاهما بمكتبة الأسكوريال بميدريد^(١) ؛ وانتهى الينا أيضاً ، كتاب « عيون المعارف » وهو على ما يصفه مؤلفه فى مقدمته « موجز فى ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء وولايات الملوك والخلفاء إلى سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة من الهجرة » ، وتوجد من عيون المعارف نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية^(٢) ، ولكننا نرتاب فى أنها مختصر لكتاب أكبر ربما كان هو المعروف « بتاريخ القضاى » وهو الذى يقتبس منه كثير من المؤرخين المتأخرين ، والظاهر أيضاً أن « عيون المعارف » و « الأنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء » هما اسمان لؤلف واحد حسبما يبدو من مقدمة « عيون المعارف » المشار اليها

يبد أن أهم آثار القضاى هو بلا ريب كتابه الشهير فى الخطط وهو المسمى : « المختار فى ذكر الخطط والآثار » ؛ ولم يصلنا هذا الأثر ، ولكن انتهت الينا منه على يد الكتاب والمؤرخين المتأخرين ، ولا سيما القلقشندى والمقرئى وابن تفرى بردى والسيوطى شذور كثيرة تدل على قيمته وأهميته ؛ وقد كان لمؤلف القضاى فى الخطط أهمية خاصة لأنه آخر رواية كتبت عن خطط مصر والقاهرة قبل أن تنشر معالمها فترة الشدة والحرب التى نزلت بعصر أيام المستنصر بالله ، وقبل أن تبث بعد ذلك خلقاً جديداً فى معظم معالمها وصروحها ، وهى حقيقة ينوه بها المقرئى فى مقدمة « الخطط » إذ يذكر كتاب القضاى « المختار » ضمن مصادرهم ثم يقول : « ومات (أى القضاى) فى سنة سبع وخمسين وأربعمئة^(٣) قبل سنئ الشدة فدنر أكثر ما ذكر ولم يبق إلا بلمع وموضع بلقع »^(٤) والظاهر مما نقل الينا من كتاب القضاى أنه أثر ضخم تناول فيه خطط مصر

(١) راجع فهرس مخطوطات الأسكوريال للأستاذ لبنى برونال

(ج ٢) رقم ٧٣٦ و ٧٦٧ (كتاب الشهاب) ورقم ٧٥٢ (مسند الشهاب)

(٢) تحفظ هذه النسخة ضمن مجموعة مخطوطات رقم (١٧٧٩ تاريخ)

(٣) وهى رواية خاطئة ، لأن القضاى توفى سنة ٤٥٤ هـ كما قدمنا

(٤) الخطط - ج ١ ص ٥